

الدرس الثاني والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد :

باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبوري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

هذه الترجمة ((باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله)) عقدها رحمه الله تعالى تحذيراً من الغلو في القبور - قبور الصالحين- وبيان ما يفضي إليه هذا الغلو من اتخاذها أوثاناً وعبادة المقبورين فيها من دون الله تبارك وتعالى .

والإمام رحمه الله تعالى تنوعت التراجم عنده فيما يتعلق بالغلو ؛ سبق أن مر معنا ((باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)) ، ثم أتبعه بـ ((باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده)) ، ثم عقد هذه الترجمة ((باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله)) فتنوعت تراجم المصنف رحمه الله تعالى في التحذير من هذه المسألة الخطيرة والأمر الخطير وهو ما يتعلق بقبور الصالحين ؛ وذلك لخطورة الأمر البالغة من جهة ، ومن جهة أخرى عظم وكثرة ما وقع فيه الناس من زلل في هذا الباب وانحراف في هذا الباب ؛ غلواً في الصالحين وتعظيماً لهم . فتنوعت التراجم عنده رحمه الله تعالى نصحاً وتحذيراً .

وهذه الترجمة التي بين أيدينا قصد من خلالها رحمه الله تعالى أن ينبّه على أمور عديدة تتعلق بهذا الأمر ، تتعلق بقبور الصالحين وما يقع حولها من مخالفات وانحرافات :

❖ فقصد أولاً رحمه الله تعالى التحذير من الغلو في الصالحين ولاسيما بعد وفاة الرجل الصالح . ومن المعلوم أن الرجل الصالح الذي اشتهر في الناس بصلاحه واستقامته وديانته وطاعته لله سبحانه وتعالى له مكانة في القلوب ومنزلة في النفوس ومحبة لدى عباد الله تبارك وتعالى ، وعند مفارقتة بوفاته يتألم الناس لفراقه ، وإذا لم يُضبط هذا الألم وهذا الحب للرجل الصالح بضوابط الشرع يقع الإنسان في الزلل والانحراف ويدخل في الغلو بالرجل الصالح

على إثر وفاته دخولاً شديداً فيقع في أنواع من الغلو . وهذا ما حصل فعلاً مراتٍ عديدة عبر التاريخ ، لاسيما في الأمكنة التي يقل فيها العلم وتقل فيها الدراية بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وهديه ، فتجد الجهال عندما يموت الرجل الصالح الذي له تلك المكانة وتلك المنزلة في قلوبهم يقولون : ما يمكن أن ندفعه مثل غيره من الناس ، لا بد أن نَمِيَّزَه ، لا بد أن نخصه بشيء ؛ فيبدؤون في صور من الغلو في ذلك الرجل الصالح التي تفضي فيما بعد إلى اتخاذه وثناً وعبادته من دون الله . وهذا أمرٌ تكرر كثيراً عبر التاريخ ، بل إن أول شرك حصل في الناس من بداية الأمر في ذرية آدم كان بسبب هذا الأمر ؛ الغلو في الصالحين ، وتقدم معنا ما يتعلق باللات والعزى ويأتي أيضاً إشارة إلى ذلك فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة من روايات .

❖ الأمر الثاني مما أراد أن ينبه عليه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة : أن الغلو في قبور الصالحين يؤدي إلى عبادتها ، فتبدأ أولاً غلوًا في الصالح بتمييز قبره ببناءٍ مشيد وزخرفة وزينة وإضاءة وقناديل وأشياء من هذا القبيل ، ثم يفضي ذلكم بالناس إلى عبادتها وصرف العبادة لها .

❖ الأمر الثالث مما أراد أن يبينه المصنف رحمه الله تعالى : أن عبادة قبر الرجل الصالح يصير القبر وثناً قال : «يصيرها أوثاناً» ، فإذا كان قبر الرجل الصالح يُعبد يصير بذلك وثناً ، لأن الوثن : هو ما يُتخذ للعبادة سواءً كان شجرةً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك ، ما يُتخذ للعبادة من دون الله يسمى وثناً . أرايتم مثلاً لو أن شجرةً في الصحراء كغيرها من الأشجار شأنها كشأن الأشجار تسمى شجرة ، ومن رآها يقول هذه شجرة ، لكن لو عَظِّمَت مثل تعظيم المشركين للعزى وأصبحت تُقصد للعبادة والسؤال والدعاء والطلب وغير ذلك والتمسح بها وتعليق الأسلحة فيها للبركة والعكوف عندها ، مثل ما مر معنا في الشجرة التي يقال لها ذات أنواط في حديث أبي واقد الليثي فإنها تصبح تلك الشجرة بعبادتها وقصدها للعبادة والتبرك والعكوف ونحو ذلك تصبح وثناً ، يقال هذه الشجرة وثن؛ لماذا ؟ لأنها اتُّخذت معبوداً من دون الله تبارك وتعالى فتكون بذلك وثناً .

قد يقول قائل : نعم الشجرة إذا عُبِدت وقُصدت للعبادة والتبرك تصبح بذلك وثناً ؛ لكن هل قبر الرجل الصالح إذا عُبِد وقُصد بالعبادة وأصبح اتُّخذ القبر معبوداً يُقصد بالعبادة ذبحاً وندراً ودعاءً وتبركاً وغير ذلك هل يصبح القبر وثناً بذلك ؟ الجواب نعم ؛ نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الآتي ذكره عند المصنف رحمه الله تعالى قال ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) ؛ هذا يفيد أن قبر الرجل الصالح إذا عُبِد من دون الله صار بذلك وثناً ، وسيأتي أن الله سبحانه وتعالى حمى قبر نبيه عليه الصلاة والسلام وأجاب دعوته صلى الله عليه وسلم ؛ فأصبح لا أحد

يستطيع أن يصل إلى قبره صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . فهذه من الأمور التي أراد المصنف رحمه الله تعالى أن ينبه عليها بهذه الترجمة .

❖ أمر آخر أيضا أراد أن ينبه عليه رحمه الله تعالى في هذه الترجمة؛ ألا وهي : أن اتخاذ القبور مساجد ، وعرفنا فيما سبق أن اتخاذها مساجد يكون بالبناء عليها ويكون بقصدها وتحري العبادة عندها ، فتحري العبادة عند القبور أو البناء على القبور يكون فاعل ذلك قد اتخذها مسجداً ، وقد مر معنا أن نبينا عليه الصلاة والسلام في لحظاته الأخيرة من الحياة قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) يحذر مما صنعوا .

فهذه أمور أربعة كلها مقصودة في هذه الترجمة التي بعنوان ((ما جاء)) أي في الأحاديث والأخبار ((أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تُعبد من دون الله)) يصيرها : أي يجعلها تصير أوثانا تُعبد من دون الله . فإذا يجب على كل مسلم يخاف الله تبارك وتعالى ويتقيه أن يحذر من الغلو ، نعم الرجل الصالح له منزلة وله مكانة في القلوب وله محبة في النفوس ؛ لكن ليس معنى ذلك أن يُغلى في قبره وأن يُفعل في قبره أشياء من الغلو تفضي فيما بعد إلى عبادة هذا القبر من دون الله تبارك وتعالى .

وفي بادئ الأمر من يمارس المغالاة في قبور الصالحين تشييداً وبناءً وزخرفةً ربما في بدء الأمر يكون من باب فقط تمييز هذا الصالح وإظهار ما له من مكانة في النفوس ، يكون في بادئ الأمر هذا هو المراد؛ إبرازه ، تمييز ما له من مكانة ، له مكانة عالية هذا رجل ليس كغيره ، هذا كان كذا وكان كذا وكان كذا إلى آخره. إذاً لا بد أن نميزه عن الآخرين ؛ ففي بادئ الأمر يكون لأجل هذا القصد فيغلبون في قبره رفعاً وتشييداً وزخرفةً وغير ذلك مما هو مخالف ومصادم للنصوص التي فيها النهي عن ذلك وسيأتي الإشارة إلى شيء منها . ثم يؤول الأمر - كما أوضح المصنف رحمه الله تعالى - إلى أن تُعبد ، لأن الشيطان يأتي للأجيال اللاحقة ولاسيما مع دروس العلم وقلة البصيرة في الدين يأتي الأجيال اللاحقة ويقول لهم هذا القبر الذي هذه صفته وهذه زخرفته وهذه زينته ليس كسائر القبور هذا له خصوصية بأن يُقصد تبركاً عكوفاً إلى غير ذلك ؛ فيتخذ وثناً .

وكما أشرت في بدء الحديث أن الوقائع في مثل هذا الأمر في التاريخ كثيرة جداً ، بدءاً من أول حادثة شركٍ حصلت في تاريخ البشرية ذرية آدم وما بعد ذلك كلها راجعة إلى هذا الباب ، ولهذا حذر النبي عليه الصلاة والسلام من الافتتان في هذا الباب من جهتين سبق التنبيه عليهما : ما يتعلق بالقبور وتشييدها وزخرفتها ورفعها إلى غير ذلك ، والجانب الآخر ما يتعلق باتخاذ الصور للصالحين والتمثيل التي على هيئاتهم . فهذا وذاك هو أعظم أسباب الفتنة التي تفضي بفاعل ذلك إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى .

أورد المصنف رحمه الله تعالى شيخ الإسلام الإمام المجدد المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى أورد في صدر هذه الترجمة حديثاً خرجه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في كتابه الموطأ ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »)) ؛ دعا عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) وهذا يستفاد منه كما تقدم أن قبر الصالح إذا عُبد يصبح وثناً . فالنبي عليه الصلاة والسلام خاف وخشي ذلك فتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالسؤال أن يصون قبره عليه الصلاة والسلام وأن يحفظ قبره عليه الصلاة والسلام أن لا يكون كذلك ، فدعا هذه الدعوة سائلاً الرب العظيم جل في علاه ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) ، بمعنى أن القبر إن عُبد صار وثناً ، فسأل الله سبحانه وتعالى أن يصون قبره وأن يحفظه من ذلك . فأجاب رب العالمين دعاءه . قال ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته الكافية الشافية :

فأجاب رب العالمين دعاءه فأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه -أي القبر- بدعائه في عزة وحماية وصيان

وهذا من إجابة الله سبحانه وتعالى دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ أحيط القبر بثلاثة جدران ؛ جدار من جهة القبلة ممتد من الشرق إلى الغرب ، ثم جداران يمتدان إلى أن يلتقيا في زاوية في جهة الشمال التي هي الجهة التي تكون مستقبل القبر . فأحيط بثلاثة جدران على شكل مثلث على شكل ثلاثي الأضلاع ، وأيضا أتبع ذلك بجدار ثالث . الأول جدار الغرفة الأصل ، ثم هذا الجدار المثلث ، ثم جدار ثالث ، فما أصبح أحد يستطيع أن يصل إلى نفس القبر ، وإن مارس أحد شيئاً مخالفاً أو أمراً خاطئاً فإنه في مكان بعيد عن القبر ، أما القبر - قبر النبي عليه الصلاة والسلام - في عزة وحماية وصيان كما يقول ابن القيم رحمه الله ، لأن الله حماه وأجاب دعوة نبيه ومصطفاه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . قال : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد))

يستفاد من هذا الحديث فيما يتعلق بالترجمة أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد ، وأنها إن عُبدت صارت بتلك العبادة أوثاناً ، لأن الوثن: هو ما اتُّخذ معبوداً ؛ أي كان شجرةً حجراً قبراً أي كان، ما اتُّخذ معبوداً من دون الله تبارك وتعالى فإنه يسمى وثناً .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ؛ في قوله «اشتد غضب الله» فيه إثبات الغضب صفةً لله سبحانه وتعالى ، وهذه الصفة جاءت في مواضع في القرآن الكريم ، وأن غضبه سبحانه وتعالى على أهل المعاصي والجرائم والذنوب يشتد بحسب حجم المعصية وحجم الجرم ، وهذا العمل وهذه الممارسة -اتخاذ قبور الأنبياء مساجد- يصيرها أوثاناً تُعبد ؛ فهو فعلٌ يشتد غضب الرب سبحانه وتعالى عند فعله ، إذا فُعل هذا الأمر فإن الله سبحانه وتعالى يغضب ويشتد غضبه على فاعل ذلك .

قال ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) تقدم معنا أن هؤلاء شرار الخلق في الترجمة الماضية ، وتقدم معنا أن النبي عليه الصلاة والسلام لعن فاعل ذلك ، واللعن لا يكون إلا في الكبائر والجرائم العظام ، فلعن عليه الصلاة والسلام فاعل ذلك ، وكان هذا اللعن لفاعل ذلك في لحظاته الأخيرة من الحياة ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها راوية ذلك عنه عليه الصلاة والسلام : ((يحذر مما صنعوا)) ؛ يلعن اليهود والنصارى في اتخاذ قبور أنبياءهم مساجد تحذيراً مما صنعوا .

وسبحان الله!! تجد بعض الناس ممن ابتلي بالانحراف في هذا الباب يترك هذا اللعن الواضح البين الذي هو في لحظات النبي عليه الصلاة والسلام الأخيرة ويحذر مما صنعوا يترك ذلك ويستدل بما جاء في سورة الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْهِمُ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾ (٢١) ؛ أي الفتية أصحاب الكهف . فيترك اللعن الصريح الثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام ويستدل بـ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْهِمُ﴾ ، من هم هؤلاء الذين سيحاكي فعلهم ويترك لعن النبي صلى الله عليه وسلم لفاعل ذلك ؟

وهنا أيضاً أسألکم سؤال في رد الاستدلال بهذه الآية : هل يناسب أن يقال "هذا شرع من قبلنا وجاء شرعنا بخلافه" ؟ الاستدلال بها على هذا الأمر باطل ؛ لكن هل يصح أن يقال هذا شرع من قبلنا وجاء شرعنا بخلافه ؟ جاء شرعنا بنسخه مثلاً ؟ الجواب لا ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى)) لعن من فعلوا ذلك ولو كان شرعاً لهم لم يلعن ، قال ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) يتحدث عن الأمم التي قبل ويلعن فاعل ذلك ؛ فهذا يُعرف أنه ليس شرعاً لهم .

إذاً هؤلاء الذين قالوا «لنتخذن عليهم مسجدا» كيف يأتي آتٍ ويأخذ حجةً له ويترك اللعن الصريح؟! ثم من هم هؤلاء الذين قالوا ذلك ؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْهِمُ﴾ وفي الأظهر من أقوال أهل العلم أنهم ليسوا مسلمين قائلو هذه الكلمة ، أنهم ليسوا من أهل الإسلام ، والذي يقرأ سياق الآيات في سورة الكهف يتضح له ذلك . وإذا قيل إنهم مثلاً مسلمين فهذا فعلٌ صدر عن جهل وعدم بصيرة فلا يُعد حجة ؛ ولهذا نُسب إلى فاعل ذلك بأهل الغلبة أهل الظهور . وسبحان الله !! عادة البناء على القبور وتشبيدها غالباً ما يكون من عوام الناس والفقراء والضعفة ، لا ؛ يكون من أهل الغلبة وأهل الظهور فيمن يريدون أن يعظمونه ، سواءً من رئيس أو رجل صالح أو غير ذلك يكون الفعل من هؤلاء .

وفي حديث الترجمة يقول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) وعرفنا فيما سبق أن اتخاذ قبور الأنبياء أو الصالحين مساجد يكون إما بالبناء عليها ومر معنا شاهد ذلك في حديث أم سلمة المتقدم ، أو بقصدها لتحري العبادة عندها وتحري الدعاء عندها ؛ فبهذا أو ذاك يكون اتخذ

القبر مسجداً ، من تحرى العبادة عند القبر ولو لم يُبَيَّنْ عليه البناء العالى فإنه يكون قد أخذ مسجداً ، وفيه ما جاء في هذا الحديث أن غضب الله سبحانه وتعالى اشتد على فاعل ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } [النجم: ١٩] قال : « كان يلت لهم السوق فمات فعكفوا على قبره » . وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان يلت لهم السوق للحاج » .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر في تفسير الآية الكريمة في سورة النجم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمِنَّا الثَّلَاثَةَ الْآخَرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ من هو اللات ؟

فأورد رحمه الله تعالى أثراً عن مجاهد رحمه الله تعالى من علماء التابعين ومن أجلة علماء التابعين رحمه الله ، وآخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في المراد باللات من هو ؟

قال : ((كان يلت لهم السوق)) ؛ والسويق : هو طعام يُصنع من الحنطة أو الشعير ويُبَلُّ بسمنٍ مثلاً أو بعسل ويؤكل طعاماً ، فكان هذا الرجل يلت لهم - والضمير يعود على الحاج وقاصدي بيت الله الحرام - فكان يلت لهم السوق ؛ يعني رجل معروف بالكرم ، اشتهر بالكرم والإحسان إلى الحاج ، وله صخرة يعجن أو يصنع عليها هذا الطعام ويقدمه للحاج أي بدون مقابل وإنما إكراماً وإحساناً إلى الحاج ، فرجل اشتهر بالكرم وعُرف بين الناس بالكرم. قال « كان يلت لهم السوق » يعني عرفوه بالكرم عرفوه بالخلق الفاضل عرفوه بالمعونة والمساعدة للحجاج ؛ هذه المعاني الجميلة عرفوه بها ، لما مات ماذا صنعوا ؟ انظروا في الأمر الذي يتكرر عبر التاريخ فيمن اشتهر بصلاحٍ أو نحو ذلك .

قال : ((كان يلت لهم السوق فمات فعكفوا على قبره)) ؛ عكوفهم على قبره أصبحوا بذلك العكوف على قبره صيروه وثناً ؛ ولهذا عد من جملة الأوثان ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمِنَّا الثَّلَاثَةَ الْآخَرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ فصار وثناً من جملة هذه الأوثان ، هو في الأصل قبر مثل غيره من القبور لكن لما عبدوه صار ذلك القبر وثناً ((فعكفوا على قبره)) .

قال : ((وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت لهم السوق للحاج)) ؛ يلت : أي يصنعه لهم ؛ يخلط الحنطة أو الشعير بسمن أو بعسل أو نحو ذلك ويقدمه للحاج إكراماً لهم ، اشتهر بهذا الأمر وعُرف به ، ومثل ما تقدم في أثر مجاهد لما مات عكفوا على قبره .

والمراد بسوق المصنف رحمه الله تعالى لهذين الأثرين : بيان ما ترجم لأجله ؛ ألا وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور)) ؛ واللعن كما تقدم لا يكون إلا في الكبائر ، لا يكون اللعن في صغائر الذنوب وإنما يكون في الكبائر . فهذا فيه دليل على أن هذا الأمر من الكبائر وإلا لم يلعن النبي عليه الصلاة والسلام فاعله ، فاللعن لا يكون إلا في الكبائر . والكبيرة تُعرف : بمجيء اللعن لفاعلها ، أو الإخبار أنه من أهل النار ، أو أنه لا يدخل الجنة ، أو نفي الإيمان عنه ؛ فالكبيرة تعرف بذلك . فإذا هذا اللعن يدل على أن هذا الأمر من الكبائر .

قال : ((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور)) وقد جاء عنه في حديث آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((كنت نهيتمكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)) والخطاب هنا للذكور ((ألا فزوروها فإنها تذكرم الآخرة)) ، أما النساء لا يدخلن في ذلك لما جاء في هذا الحديث من لعن من فعلت ذلك ((لعن الله زائرات القبور)) . والحديث وإن كان في سنده كلام إلا أنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ ((لعن الله زورات القبور)) ، وهذه الصيغة «زورات» صيغة مبالغة ، لكن هذه الصيغة تأتي في مواضع ولا يراد بها المبالغة وإنما يراد بها النسبة، زورات : أي ذات الزيارة للقبور من يزرن القبور ، فتأتي هذه الصيغة فعّال ولا يراد المبالغة ، مثل ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] أي ليس بذي ظلم لهم ، ليس المراد نفي المبالغة في الظلم وإنما نفي الظلم من أصله . ولهذا نظائر كثيرة حتى في ألفاظ الناس العادية يأتي ذكر ذلك ولا يراد المبالغة وإنما تراد النسبة ، مثل «نجار» أي صاحب نجارة منسوب للنجارة ، «حداد» منسوب للحدادة ، وهكذا .

فجاء هذا الوعيد ((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور)) ؛ قال أهل العلم : مُنِع النساء من الزيارة مع أن زيارة القبور فيها مصلحة : تذكر الآخرة ، والدعاء للميت ((ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)) هذه مصلحة ، وأيضا فيها الدعاء للميت وعلم النبي صلى الله عليه وسلم من يزور القبور ماذا يقول ، ففيها مصلحة الزيارة . لكن هذه المصلحة يقابلها مفسدة إذا زارت المرأة القبور ، وهو ما جُبلت عليه المرأة من ضعف وعدم احتمال ، ولهذا جاء في الحديث ((والنائحة إذا لم تتب)) ، مع أن الحكم يشمل الرجال والنساء ، لكن حُصت المرأة بالذكر لأن المرأة أسرع للجزع وأضعف عن الاحتمال ، إضافة إلى أمورٍ أخرى تترتب على قصد المرأة وزيارتها للقبور .

فإذا ثمة مفسدة ، لأجل درء تلك المفسدة مُنعت من ذلك مع وجود تلك المصلحة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : تحصيل تلك المصلحة ممكنة بدون الزيارة ، الدعاء للأموات ممكن وإن لم يزهم ، فتدعو للأموات في بيتها ، وتذكر الآخرة أيضاً له وسائل وطرق ليس لا يكون إلا بالزيارة للقبور فقط ، فتحصيل هذه المصلحة ممكنة بدون الزيارة ، ومُنعت من الزيارة لما يترتب عليها من مفسدة تخص المرأة وتتعلق بها .

والمسألة فيها خلاف بين أهل العلم معروف ، لكن هذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم : أن المرأة منهيّة عن زيارة القبور؛ لما جاء في هذا الحديث المشتمل على اللعن - لعن المرأة في هذا الفعل - . والقول الآخر يقولون : أن زيارة المرأة للقبور جائز .

وإذا تركت المرأة هذا الجائز على قول ، أهل ذلك القول لا يقولون واجب عليها ويلزمها الزيارة وإنما يقولون يجوز لها أن تزور القبور ، فإن تركت هذا الجائز في قول لأهل العلم سلامةً من اللعنة والوعيد الشديد الوارد في هذا الحديث فهذا الذي ينبغي أن تكون عليه المرأة وأن تجتنب زيارة القبور لما في ذلك من وعيدٍ ثبت عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((والمتخذين عليها المساجد والسرج)) أي ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخذين عليها المساجد والسرج . المتخذين عليها المساجد مر لعنهم في حديث عائشة رضي الله عنها في لحظاته الأخيرة ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، ولماذا لعن فاعل ذلك؟ لماذا لعن من يتخذ القبور مساجد لأي شيء ؟ لأن هذا بوابة للشرك ومدخل يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى . واتخاذها مساجد يكون إما بالبناء عليها أو بقصدها لتحري العبادة عندها ؛ فهذا أو ذاك ذريعة للشرك وأمرٌ يفضي ويؤدي إليه ، فجاء هذا اللعن تحذيراً من ذلك .

وانظر الجمع بين الوسيلة وما تفضي إليه من شركٍ بالله في الحديث الذي تقدم معنا في هذه الترجمة ؛ قال : ((اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) ، فاتخاذ القبور مساجد الذي اشتد غضب الله على فاعليه يفضي إلى أن تُعبد وتُتخذ وثناً من دون الله .

فإذاً هذا اللعن - لعن متخذي قبور الأنبياء أو الصالحين مساجد- لأنها تفضي إلى الشرك . ومثله تماماً اتخاذ السرج عليها . السُرج : جمع سراج مثل كتب جمع كتاب . متخذي السرج عليها : الذين يضعون هذا القبور بناء بينون عليها الأبنية ، ويتخذون السرج يعني يضعون الإضاءات القناديل ونحوها ويزينونها بالإضاءات ، وإذا جاء العامي يجد أن هذا شيء آخر غير القبور التي يعرفها ، يجد أن هذا شيء آخر وبنية عظيمة وإضاءة قوية وزخرفة وزينة ، ويكون جاهلاً لا يعي شيئاً فتأخذ هذه الزينة وهذه الزخرفة قلبه وتسلب عقله ويتجه تبركاً وقصداً وعكوفاً وغير ذلك ؛ فجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام اللعن لفاعل ذلك ؛ من يتخذ عليها المساجد بالبناء على القبور، وأيضاً السُرج ؛ يضع فيها الإضاءات ، وأيضاً ما يلحق ذلك من أمور الزينة التي توضع ، حتى إن بعض القبور بالذهب تُزَيَّن!! تجد المنطقة التي فيها هذا القبر مزين بالزخرفة مليئة بالفقراء ولا يتصدقون عليهم بشيء من الذهب ، ولو تصدقوا عليهم بشيء من الذهب لوجدوه عند الله سبحانه وتعالى ثواباً وأجراً ، لكن ينفقونها في هذا الباطل وبينون عليها يزخرفونها يزينونها يضعون القناديل .

ففيه اللعن قال: ((المتخذين عليها المساجد والسرج)) ؛ العلة في لعن اتخاذ السرج على القبور هو نفس العلة التي في اتخاذ المساجد عليها لأنه يفضي إلى الشرك ووسيلة من وسائله أو ذريعة من ذرائعه ، فحمى نبينا عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد وصان جنابه وسد كل أمرٍ يفضي إلى الإشراف بالله سبحانه وتعالى .

وتأتي الترجمة القادمة إن شاء الله في تقرير هذا المعنى ((باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك)) ، فالمنع من اتخاذها مساجد ، المنع من اتخاذ السرج عليها ، إلى غير ذلك من الأمور كلها من أجل ما تفضي إليه تلك الأمور من شرك بالله سبحانه وتعالى ، فحمى المصطفى عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد وسد كل طريقٍ يوصل إلى الشرك بالله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الأوثان .

قال رحمه الله تعالى وغفر له وأسكنه فردوسه الأعلى : «فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الأوثان»؛ والأوثان : جمع وثن ، والوثن : هو ما اتُخذ معبوداً ؛ أي كان حجراً شجراً قبراً أيّاً كان ؛ ما اتُخذ وثناً يعبد يُقصد بالعبادة فإنه وثن، حتى لو كان قبر رجل صالح ، وعرفنا دليل ذلكم في الحديث ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)).

الثانية : تفسير العبادة .

قال ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) والعبادة التي تكون عند القبور بالعكوف عندها ، طول القيام والمكث ، التماس البركة أن تفيض عليه البركة من هذا المقبور الذي قصد قبره ، ثم بعد ذلك يزداد في هذا الأمر إلى أن يدعوه ويستغيث به ويسجد له من دون الله تبارك وتعالى ، إلى غير ذلك من أنواع العبادات .

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعد إلا مما يخاف وقوعه .

فلاستعادة في الحديث قال ((اللهم لا تجعل قبري)) ، يستعيد بالله يلتجئ إلى الله عز وجل أن يصون قبره وأن يحميه أن لا يكون وثناً يعبد ، فلم يستعد عليه الصلاة والسلام إلا مما يخاف وقوعه ، لأن هذا شيء وقع فيما قبل ؛ فخاف ذلك فدعا الله عز وجل وأجاب الله سبحانه وتعالى رب العالمين دعاءه .

الرابعة : قرّنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

هذا فيه فائدة ثمينة ينبه عليها رحمه الله : «قرّنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد»؛ لأنه لما قال ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) أتبع ذلك بقوله ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ؛ وهذا فيه التنبيه - يعني قرّنه به - فيه التنبيه إلى أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد يفضي إلى عبادتها ؛ فتكون وثناً .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

أي في قوله عليه الصلاة والسلام ((اشتد غضب الله)) ، واشتداد الغضب لا يكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب والأمر الخطيرة التي تجر إلى أشياء عظيمة جداً ، وهذا فيه كما قدمت فيه إثبات الغضب صفة لله سبحانه وتعالى وهي ثابتة في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه . والقاعدة أن يؤمن بصفات الله كما جاءت وتثبت كما وردت على وجه يليق بالله سبحانه وتعالى وبكماله وجلاله وعظمته .

السادسة وهي من أهمها : صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان .

اللات وثن من أكبر الأوثان ، عندما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام كان هذا الوثن من أكبر الأوثان القائمة المقصودة المعبودة ؛ فهنا ينبه الشيخ رحمه الله بما نقله عن مجاهد ثم عن ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن صفة عبادة اللات أنه في الأصل كان رجلاً كريماً يكرم الحاج ويصنع لهم السويق فلما مات عكفوا على قبره ، فمعرفة صفة عبادة اللات التي هي من الأوثان أي أنها من خلال هذا الطريق : تعظيم القبور والغلو فيها المفضي إلى عبادتها واتخاذها وثناً ، وشاهد ذلك قصة اللات ، اللات في الأصل رجل معروف بالكرم ومعاونة الحاج ومساعدتهم وتقديم الطعام لهم فلما مات عكفوا على قبره .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

يعني معروف بهذه المعاني : الكرم ، وخدمة الحجاج ومساعدتهم ، وصنع الطعام لهم ؛ فهو معروف عنه عند الناس بذلك ؛ فلما مات عكفوا على قبره . فهذا فيه شاهد الترجمة ((أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تُعبد من دون الله)) مثل ما صنَّع في اللات .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذكر معنى التسمية .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ؛ يعني هذا الوثن الذي يُقصد يقصده المشركون من الأنحاء والجهات يتقربون إليه اسمه اللات ، اسم الوثن اللات ، من أي جاءت هذه التسمية ؟ قال : «أنه اسم صاحب القبر» أي ذلك الرجل الذي كان يلت السويق. وذكر معنى التسمية «اللات» من اللت الذي هو لت السويق : صنَّعه وتهيئته من أجل أن يقدِّم للحجاج .

التاسعة : لعنة زوارات القبور .

لعنة زوارات القبور أي من يزرن القبور ، وهذه الصيغة وإن كانت صيغة مبالغة إلا أنه لا يُقصد هنا المبالغة وإنما يُقصد النسبة ، زوارات أي من يزرن القبور ؛ ففيه اللعن لمن فعل ذلك ، وهذا فيه أن المرأة منهيبة عن زيارة القبور .

العاشر : لعنه من أسرجها .

لعنه صلى الله عليه وسلم من أسرجها أي : من أسرج القبور بأن وضع عليها السرج ، والسرج : جمع سراج ، وهي الإضاءة القناديل التي توضع في المكان حتى يضيء . فاتخاذ السرج أو أيضا ما يتبع ذلك من زخرفة وزينة وستائر وغير ذلك من الأمور التي تأخذ بعقول الجهال كلها تأخذ هذا الحكم ، لأنها مما يفضي ويؤدي بفاعل ذلك أو بمن يشاهد ذلك إلى عبادتها من دون الله تبارك وتعالى .

وبهذا تكون انتهت هذه الترجمة ، ومن المناسب أن نقف فيما يتعلق بهذه الترجمة على نصِّ ثمين وعظيم جداً من كتاب إغاثة اللفهان للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى : [ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً^١ . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها. ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء

^١ الآن سيذكر رحمه الله تعالى أمثلة كثيرة على ما جاءت به السنة فيما يتعلق بالقبور ، ثم واقع كثير من الناس فيما يتعلق بهذا الأمر .

ينون عليها المساجد ويسموها مشاهداً لبيوت الله تعالى . ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى أن تُتخذ أعياداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته". وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفي قال: "كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم ، فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها " وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تخصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تخصيص القبر وأن يُفعد عليه وأن يُبنى عليه بناءً". ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود والترمذي في سننهما عن جابر رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يُحصص القبر وأن يُكتب عليها" قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره. ونهى أن يزداد عليها غير تراهما كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصص القبر أو يكتب عليه أو يزداد عليه" وهؤلاء لا يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص. والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً الموقدين عليها السرج الذين ينون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه ، قال أبو محمد المقدسي: "ولو أبيض اتخاذا السرج عليها لم يلعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعله " ، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام ، قال: "ولا يجوز اتخاذا المساجد على القبور" لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا" متفق عليه. وقالت عائشة رضي الله عنها : "إنما لم يبرز قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يتخذ مسجداً" لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها . وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها [انتهى .

وهذا النص لابن القيم رحمه الله تعالى بالرجوع إلى كتابه إغاثة اللفهان يقف طالب العلم على فوائد عظيمة جدا قبل هذا النص وبعده تتعلق بهذه المسألة ، وتطرق إليها لأنها باب من أبواب مصائد الشيطان التي من خلالها صرف الناس عن عبادة الرحمن إلى اتخاذا الأوثان .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .